المختلفة وتسأم من الفن الواحد وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ان القلوب تمل كما تمل الأبدان فأهدوا اليها طرائف الحكمة فكان هذا الأسلوب يحب التنقل في المطلوب من مكان الى مكان وكان المأمون رحمه الله تعالى يتنقل كثيرا في داره من مكان الى مكان وينشد قول أبي العتاهية رحمه الله

لا يصلح النفس اذ كانت مدبرة * الا التنقل من حال الى حال

وجعلت ما تضمنه هذا الكتاب خمسة أبواب (الباب الاول) في فضل العقل وذم الهوى (الباب الثاني) في أدب العلم (الباب الثالث) في أدب الدين (الباب الرابع) في أدب الدنيا (الباب الخامس) في أدب النفس وانما أستمد من الله تعالى حسن معونته وأستودعه حفظ موهبته بحوله ومشيئته وهو حسبي من معين وحفيظ

(باب فضل العقل وذم الهوى)

اعلم أن لكل فضيلة أسا ولكل أدب ينبوعا وأس الفضائل وينبوع الآداب هو العقل الذي جعله الله تعالى للدين أصلا وللدنيا عمادا فأوجب التكليف بكماله وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه وألف به بين خلقه مع اختلاف هممهم وما آربهم وتباين أغراضهم ومقاصدهم وجعل ما تعبدهم به قسمين قسما وجب بالعقل فوكده الشرع وقسما جاز في العقل فأوجبه الشرع فكان العقل لهما عمادا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما اكتسب المرء مثل عقل يهدى صاحبه الى هدى ويرده عن ردى . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (١) لكل شئ عمل

(١) قوله لكل شئ عمل هكذا بالاصل ولعل لفظة شئ مزيدة من الناسخ كتبه مصححه

دعامة ودعامة عمل المرء عقله فبقدر عقله تكون عبادته لربه أما سمعتم قول الفجار لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه أصل الرجل عقله وحسبه دينه ومروءته خلقه . وقال الحسن البصرى رحمه الله ما استودع الله أحدا عقلا الا استنقذه به يوما ما . وقال بعض الحكماء العقل أفضل مرجو والجهل أنكى عدو . وقال بعض الادباء صديق كل امرئ عقله وعدوه جهله . وقال بعض البلغاء خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل . وقال بعض الشعراء وهو ابرهيم بن حسان

يزيد الفتى فى الناس صحة عقله * وان كان محظورا عليه مكاسبه
يشين الفتى فى الناس قلة عقله * وان كرمت أعراقه ومناسبه
يعيش الفتى بالعقل فى الناس انه * على العقل يجرى علمه وتجاربه
وأفضل قسم الله للمرء عقله * فليس من الاشياء شئ يقاربه
اذا أكمل الرحمن للمرء عقله * فقد كملت أخلاقه وما آربه

واعلم أنه بالعقل تعرف حقائق الأمور ويفصل بين الحسنات والسيئات وقد ينقسم قسمين غريزى ومكتسب

فالغريزى هو العقل الحقيقى وله حد يتعلق به التكليف لا يجاوزه الى زيادة ولا يقصر عنه الى نقصان وبه يمتاز الانسان عن سائر الحيوان فاذا تم فى الانسان سمى عاقلا وخرج به الى حد الكمال كما قال صالح بن عبد القدوس

اذا تم عقل المرء تمت أموره * وتمت أمانيه وتم بناؤه

وروى الضحاك فى قوله تعالى لينذر من كان حيا أى من كان عاقلا واختلف

الناس فيه وفي صفته على مذاهب شتى فقال قوم هو جوهر لطيف يفصل به بين حقائق المعلومات ومن قال بهذا القول اختلفوا في محله فقالت طائفة منهم محله الدماغ لأن الدماغ محل الحس وقالت طائفة أخرى منهم محله القلب لأن القلب معدن الحياة وماذة الحواس وهذا القول في العقل بأنه جوهر لطيف فاسد من وجهين أحدهما أن الجواهر متماثلة فلا يصح أن يوجب بعضها ما لا يوجب سائرها ولو أوجب سائرها ما يوجبه بعضها لاستغنى العاقل بوجود نفسه عن وجود عقله والثاني أن الجوهر يصح قيامه بذاته فلو كان العقل جوهرا لجاز أن يكون عقل بغير عاقل كما جاز أن يكون جسم بغير عمل فامتنع بهذين أن يكون العقل جوهرا . وقال آخرون العقل هو المدرك للاشياء على ما هي عليه من حقائق المعنى وهذا القول وان كان أقرب مما قبله فبعيد من الصواب من وجه واحد وهو أن الادراك من صفات الحي والعقل عرض يستحيل ذلك منه كما يستحيل أن يكون متلذذا أو آلما أو مشتهيا . وقال آخرون من المتكلمين العقل هو جملة علوم ضرورية وهذا الحد غير محصور لما تضمنه من الاجمال وتناوله من الاحتمال والحد انما هو بيان المحدود بما ينفي عنه الاجمال والاحتمال . وقال آخرون وهو القول الصحيح ان العقل هو العلم بالمدركات الضرورية وذلك نوعان أحدهما ما وقع عن درك الحواس والثاني ما كان مبتدأ في النفوس . فأما ما كان واقعا عن درك الحواس فمثل المرئيات المدركة بالنظر والاصوات المدركة بالسمع والطعوم المدركة بالذوق والروائح المدركة بالشم والاجسام المدركة باللمس فاذا كان الانسان ممن لو أدرك بحواسه هذه الاشياء لعلم ثبت له هذا النوع من العلم لأن خروجه في حال تغميض عينيه

من أن يدرك بهما و يعلم لا يخرجه من أن يكون كامل العقل من حيث علم من حاله أنه لو أدرك لعلم وأما ما كان مبتدأ في النفوس فكالعلم بأن الشيء لا يخلو من وجود أو عدم وأن الموجود لا يخلو من حدوث أو قدم وأن من المحال اجتماع الضدين وأن الواحد أقل من الاثنين وهذا النوع من العلم لا يجوز أن ينتفي عن العاقل مع سلامة حاله وكمال عقله فاذا صار عالما بالمدركات الضرورية من هذين النوعين فهو كامل العقل وسمي بذلك تشبيها بعقل الناقة لأن العقل يمنع الانسان من الاقدام على شهواته اذا قبحت كما يمنع العقال الناقة من الشرود اذا نفرت ولذلك قال عامر بن عبد القيس اذا عقلك عقلك عما لا ينبغي فأنت عاقل وقد جاءت السنة عايؤيد هذا القول في العقل وهو ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال العقل نور في القلب يفرق به بين الحق والباطل وكل من نفى أن يكون العقل جوهرا أثبت محله في القلب لأن القلب محل العلوم كلها. قال الله تعالى «أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها» فدلت هذه الآية على أمرين أحدهما أن العقل علم والثاني أن محله القلب . وفي قوله تعالى يعقلون بها تأويلان أحدهما يعلمون بها والثاني يعتبرون بها فهذه جملة القول في العقل الغريزي . وأما العقل المكتسب فهو نتيجة العقل الغريزي وهو نهاية المعرفة وصحة السياسة واصابة الفكرة وليس لهذا حد لأنه ينمو ان استعمل و ينقص ان أهمل ونماؤه يكون بأحد وجهين إما بكثرة الاستعمال اذا لم يعارضه مانع من هوى ولا صادّ من شهوة كالذي يحصل لذوي الأسنان من الحنكة وصحة الروية بكثرة التجارب وممارسة الامور ولذلك حدث العرب آراء الشيوخ حتى قال بعضهم المشايخ أشجار الوقار ومنابع الأخبار

لا يطيش لهم سهم ولا يسقط لهم وهم ان رأولك في قبح مذهب وان أبصر لك على جميل أمذولك وقيل عليكم بآراء الشيوخ فانهم ان فقدوا ذكاء الطبع فقد مرت على عيونهم وجوه العبر وتصدت لأسماعهم آثار الغير . وقيل في منثور الحكم من طال عمره نقصت قوة بدنه وزادت قوة عقله وقيل فيد لا تدع الايام جاهلا الا أدبته . وقال بعض الحكماء كفى بالتجارب تأديبا وبتقلب الايام عظة . وقال بعض البلغاء التجربة مرآة العقل والغرة ثمرة الجهل . وقال بعض الادباء كفى مخبرا عما بقي ما مضى وكفى عبرا لأولى الالباب ما جربوا . وقال بعض الشعراء

ألم تر أن العقل زين لأهله * وأن تمام العقل طول التجارب

وقال آخر

اذا طال عمر المرء في غير آفة * أفادت له الايام في كرها عقلا

وأما الوجه الثاني فقد يكون بفرط الذكاء وحسن الفطنة وذلك جودة الحدس في زمان غير مهمل للحدس فاذا امتزج بالعقل الغريزي صارت نتيجتهما نامو العقل المكتسب كالذي يكون في الأحداث من وفور العقل وجودة الرأي حتى قال هرم بن قطبة حين تنافر اليه عامر بن الطفيل وعلقمة ابن علاثة عليكم بالحديث السن الحديد الذهن ولعل هرما أراد أن يدفعهما عن نفسه فاعتذر بما قال لكن لم ينكر اقوله اذعانا للحق فصارا الى أبي جهل لحداثة سنه وحدة ذهنه فأبى أن يحكم بينهما فرجعا الى هرم فحكم بينهما وفيه قال لبيد

يا هرم ابن الأكرمين منصبا * انك قد أوتيت حكما معجبا

وقد قالت العرب عليكم بمشاورة الشباب فانهم ينتجون رأيا لم ينله طول القدم ولا استولت عليه رطوبة الهرم . وقد قال الشاعر

رأيت العقل لم يكن انتهابا * ولم يقسم على عدد السنينا
ولو أن السنين تقاسمته * حوى الآباء أنصبة البنينا

وحكى الاصمعي رحمه الله قال قلت لغلام حدث من أولاد العرب كان يحادثني فأمتعني بفصاحة وملاحة أيسرّك أن يكون لك مائة ألف درهم وأنت أحمق قال لا والله قال فقلت ولم قال أخاف أن يجني عليّ حمقي جناية تذهب بمالي ويبقى عليّ حمقي فانظر الى هذا الصبي كيف استخرج بفرط ذكائه واستنباط بجودة قريحته ما لعله يدق على من هو أكبر منه سنا وأكثر تجربة . وأحسن من هذا الذكاء والفطنة ما حكى ابن قتيبة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرّ بصبيان يلعبون وفيهم عبد الله بن الزبير فهرب وامنه الا عبد الله فقال له عمر رضي الله عنه مالك لم لا تهرب مع أصحابك فقال يا أمير المؤمنين لم أكن على ريبة فأخافك ولم يكن الطريق ضيقا فأوسع لك فانظر ما تضمنه هذا الجواب من الفطنة وقوة المنة وحسن البديهة كيف نفى عنه اللوم وأثبت له الحجة فليس للذكاء غاية ولا للجودة القريحة نهاية . وحكى أن سليمان بن عبد الملك أمر الفرزدق بضرب أعناق أسارى من الروم فاستعفاه الفرزدق فلم يفعل وأعطاه سيفا لا يقطع شيأ فقال الفرزدق بل أضربهم بسيف أبي رغوان مجاشع يعني سيف نفسه فقام فضرب به عنق رومي منهم فنبا السيف عنه فضحك سليمان ومن حوله فقال الفرزدق

أيعجب الناس أن أضحكت سيدهم * خليفة الله يستسقى به المطر
لم ينب سيفي من رعب ولا دهش * عن الأسير ولكن خر القدر
ولن يقدم نفسا قبل ميتتها * جمع اليدين ولا الصمصامة الذكر

ثم غمد سيفه وهو يقول

ما إن يعاب سيد اذا صبا * ولا يعاب صارم اذا نبا
* ولا يعاب شاعر اذا كبا *

ثم جلس وهو يقول كأني بابن المراغة قد هجاني فقال

بسيف أبي رغوان سيف مجاشع * ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

ثم قام فانصرف وحضر جرير وخبر بالخبر ولم ينشده الشعر فأنشأ يقول

بسيف أبي رغوان سيف مجاشع * ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

ثم قال يا أمير المؤمنين كأني بابن القين وقد أجابني فقال

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم * اذا أثقل الاعناق حمل المغارم

فاستحسن سليمان حدس الفرزدق على جرير ثم أخبر الفرزدق بشعر جرير ولم يخبر بحدسه فقال الفرزدق

كذلك سيوف الهند تنبو ظباتها * وتقطع أحيانا مناط التمائم

وان نقتل الأسرى ولكن نفكهم * اذا أثقل الاعناق حمل المغارم

وهل ضربة الرومي جاءلة لكم * أباعن كليب أو أخا مثل دارم

فشاع حديث الفرزدق بهذا حتى حكي أن الهدى أتي بأسرى من الروم فأمر بقتلهم وكان عنده شبيب بن شبة فقال له اضرب عنق هذا العلج فقال يا أمير المؤمنين قد علمت ما ابتلي به الفرزدق فعير به قوم الى اليوم فقال انما أردت تشريفك وقد أعفيتك وكان أبو الهول الشاعر حاضرا فقال

جزعت من الرومي وهو مقيد * فكيف ولو لاقيته وهو مطلق

دعاك أمير المؤمنين لقتله * فكاد شبيب عند ذلك يفرق

فنح شبيبا عن قراع كتيبة * وأدن شبيبا من كلام يلفق

وليس العجب من كلام الفرزدق ان صح من جودة القريحتين ولكن من

اتفاق الخاطرين ولمثل ذلك قالت الحكماء آية العقل سرعة الفهم وغايته اصابة الوهم وليس لمن منح جودة القريحة وسرعة الخاطر عجز عن جواب وان أعضل كما قيل لعلي رضي الله عنه كيف يحاسب الله العباد على كثرة عددهم فقال كما يرزقهم على كثرة عددهم . وقيل لعبد الله بن عباس أين تذهب الارواح اذا فارقت الاجساد فقال أين تذهب نار المصابيح عند فناء الادهان وهذان الجوابان حوابا إسكات تضمنا دليلي اذعان وحتى قهر .

ومن غير هذا الفن وان كان مسكتا ما حكي عن ابليس لعنه الله أنه حين ظهر لعيسى بن مريم عليه السلام قال ألست تقول انه لن يصيبك الا ما كتبه الله عليك قال نعم قال فارم نفسك من ذروة هذا الجبل فانه ان يقدر لك السلامة تسلم فقال له يا ملعون ان لله أن يختبر عباده وليس للعبد أن يختبر ربه ومثل هذا الجواب لا يستغرب من أنبياء الله تعالى الذين أمدهم بوحيه وأيدهم بنصره وانما يستغرب ممن يلجأ الى خاطره ويعوّل على بديهته .

وروى قثم بن العباس رضي الله عنهما قال قيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه كم بين السماء والارض قال دعوة مستجابة قيل فكم بين المشرق والمغرب قال مسيرة يوم للشمس فكان هذا السؤال من سائله إما اختبار وإما استبصارا فصدر عنه من الجواب ما أسكت . فاما اذا اجتمع هذان الوجهان في العقل المكتسب وهو ما ينميه فرط الذكاء بجودة الحدس وصحة القريحة بحسن البديهة مع ما ينميه الاستعمال بطول التجارب ومرور الزمان بكثرة الاختبار فهو العقل الكامل على الاطلاق في الرجل الفاضل الاستحقاق روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال أثني على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير فقال كيف عقله قالوا يا رسول الله

ان من عبادته إن من خلقه إن من فضله إن من أدبه فقال كيف عقله قالوا يارسول الله نثنى عليه بالعبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الاحمق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر وانما يقرب الناس من ربهم بالزلف على قدر عقولهم . واختلف الناس فى العقل المكتسب اذا تناهى وزاد هل يكون فضيلة أم لا فقال قوم لا يكون فضيلة لان الفضائل هيآت متوسطة بين فضيلتين ناقصتين كما أن الخير متوسط بين رذيلتين فما جاوز التوسط خرج عن حد الفضيلة وقد قالت الحكماء للاسكندر أيها الملك عليك بالاعتدال فى كل الامور فان الزيادة عيب والنقصان عجز هذا مع ماوردت به السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال خير الامور أوساطها . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه خير الامور النمط الاوسط اليه يرجع العالى وبه يلحق التالى . وقال الشاعر

لاتذهبن فى الامور فرطا * لاتسألن ان سألت شططا
وكن من الناس جميعا وسطا

قالوا الان زيادة العقل تفضى بصاحبها الى الدهاء والمكر وذلك مذموم وصاحبه ملوم وقد أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبا موسى الاشعرى أن يعزل زيادا عن ولايته فقال زياد يا أمير المؤمنين أعن موجدة أو خيانة فقال لا عن واحدة منهما ولكن خفت أن أحمل على الناس فضل عقلك ولاجل هذا المحكى عن عمر ماقيل قديما إفراط العقل مضر بالجسد . وقال بعض الحكماء كفاك من عقلك ماداك على سبيل رشدك . وقال بعض البلغاء قليل يكفى خير من كثير يطغى . وقال آخرون وهو أصح القولين

زيادة العقل فضيلة لان المكتسب غير محدود وانما تكون زيادة الفضائل المحدودة نقصا مذموما لان ما جاوز الحد لا يسمى فضيلة كالشجاع اذا زاد على حد الشجاعة نسب الى التهور والسخى اذا زاد على حد السخاء نسب الى التبذير وليس كذلك حال العقل المكتسب لان الزيادة فيه زيادة علم بالامور وحسن اصابة بالظنون ومعرفة ما لم يكن الى ما يكون وذلك فضيلة لا نقص .

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أفضل الناس أعقل الناس .

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال العقل حيث كان ألوف مألوف . وقد قيل فى تأويل قوله تعالى «قل كل يعمل على شاكلته» أى بحسب عقله . وقال القاسم بن محمد كانت العرب تقول من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حتفه فى أغلب خصال الخير عليه . وقيل فى منثور الحكم كل شئ اذا كثر رخص الا العقل فانه اذا كثر غلا . وقال بعض البلغاء ان العاقل من عقله فى ارشاد ومن رأيه فى امداد فقوله سديد وفعله حميد والجاهل من جهله فى اغواء ومن هواه فى اغراء فقوله سقيم وفعله ذميم وأنشدنى ابن لنكك لأبيه

من لم يكن أكثر عقله * أهلكه أكثر ما فيه

فأما الدهاء والمكر فهو مذموم لان صاحبه صرف فضل عقله الى الشر ولو صرفه الى الخير لكان محمودا . وقد ذكر المغيرة بن شعبة عمر بن الخطاب فقال كان والله أفضل من أن يخدع وأعقل من أن يخدع وقال عمر لست بالخب ولا يخدعنى الخب . واختلف الناس فيمن صرف فضل عقله الى الشر كزياد وأشباهه من الدهاة هل يسمى الداهية منهم عاقلا أم لا فقال بعضهم أسميه عاقلا لوجود العقل فيه وقال آخرون لا أسميه عاقلا حتى

يكون خيرا دينا لان الخير والدين من موجبات العقل فأما الشرير فلا أسميه عاقلا وانما أسميه صاحب روية وفكر وقد قيل العاقل من عقل عن الله أمره ونهيه حتى قال أصحاب الشافعي رضي الله عنه فيمن أوصى بثلث ماله لاعقل الناس انه يكون مصروفا فى الزهاد لانهم انقادوا للعقل ولم يغتروا بالأمل . وروى لقمان بن أبي عامر عن أبي الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ياعويمر ازدد عقلا تزدد من ربك قربا قلت بأبي أنت وأمي ومن لي بالعقل قال اجتنب محارم الله وأدّ فرائض الله تكن عاقلا ثم تنفل بصالحات الاعمال تزدد فى الدنيا عقلا وتزدد من ربك قربا وبه عزا وأنشدني بعض أهل الادب هذه الابيات وذكر أنها لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه

إن المكارم أخلاق مطهرة * فالعقل أولها والدين ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها * والجود خامسها والعرف ساديها
والبر سابعها والصبر ثامنها * والشكر تاسعها واللين عاشيها
والنفس تعلم أني لا أصدّقها * ولست أرشد الا حين أعصيها
والعين تعلم من عيني محدّثها * ان كان من حزبها أو من أعاديها
عيناك قد دلتا عينيّ منك على * أشياء لولاهما ما كنت تبديها

واعلم أن العقل المكتسب لا ينفك عن العقل الغريزي لانه نتيجة منه وقد ينفك العقل الغريزي عن العقل المكتسب فيكون صاحبه مسلوب الفضائل موفور الرذائل كالأنوك الذي لا تجدله فضيلة والاحمق الذي قلما يخلو من رذيلة . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الاحمق كالصخار لا يرقع ولا يشعب وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الاحمق أبغض خلق

الله اليه اذ حرمه أعز الاشياء عليه . وقال بعض الحكماء الحاجة الى العقل أقبح من الحاجة الى المال . وقال بعض البلغاء دولة الجاهل عبرة العاقل . وقال أنوشروان لبزرجمهر أى الاشياء خير للمرء قال عقل يعيش به قال فان لم يكن قال فاخوان يسترون عيبه قال فان لم يكن قال فمال يتحبب به الى الناس قال فان لم يكن قال فموت عاجل . وقال سابور بن أزدشير العقل نوعان أحدهما مطبوع والآخر مسموع ولا يصلح واحد منهما الا بصاحبه فأخذ ذلك بعض الشعراء فقال .

رأيت العقل نوعين * فمسموع ومطبوع
ولا ينفع مسموع * اذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس * وضوء العين ممنوع

وقد وصف بعض الأدباء العاقل بما فيه من الفضائل والأحمق بما فيه من الرذائل فقال العاقل اذا والى بذل فى المودة نصره واذا عادى رفع عن الظلم قدره فيسعد موالية بعقله ويعتصم معاديه بعدله ان أحسن الى أحد ترك المطالبة بالشكر وان أساء اليه مسى عسبب له أسباب العذر أو منحه الصفح والعفو والأحمق ضال مضل ان أونس تكبر وان أوحش تكدر وان استنطق تخلف وان ترك تكلف مجالسته مهنه ومعاتبته محنه ومحاورته تغر وموالاته تضر ومقاربته عمى ومقارنته شقا . وكانت ملوك الفرس اذا غضبت على عاقل حبسته مع جاهل والأحمق يسىء الى غيره ويظن أنه قد أحسن اليه فيطالبه بالشكر ويحسن اليه فيظن أنه قد أساء اليه فيطالبه بالوتر فساوى الأحمق لا تنقضى عيوبه لا تتناهى ولا يقف النظر منها الى غاية الا لوحت ما وراءها بما هو أدنى منها وأردى وأمر

وأدهى فما أكثر العبر لمن نظر وأنفعها لمن اعتبر . وقال الأحنف بن قيس من كل شئ يحفظ الأحمق الا من نفسه وقال بعض البلغاء ان الدنيا ربما أقبلت على الجاهل بالاتفاق وأدبرت عن العاقل بالاستحقاق فان أتتك منها سهمة مع جهل أو فاتتك منها بغية مع عقل فلا يحملنك ذلك على الرغبة في الجهل والزهد في العقل فدولة الجاهل من الممكنات ودولة العاقل من الواجبات وليس من أمكنه شئ من ذاته كمن استوجبه بآلته وأدواته وبعد فدولة الجاهل كالغريب الذي يحن الى النقلة ودولة العاقل كالنسيب الذي يحن الى الوصلة فلا يفرح المرء بحالة جليلة نالها بغير عقل أو منزلة رفيعة حلها بغير فضل فان الجهل يزله منها ويزيله عنها ويحطه الى رتبته ويرده الى قيمته بعد أن تظهر عيوبه وتكثر ذنوبه ويصير مادحه هاجيا ووليه معاديا . واعلم أنه بحسب ما ينتشر من فضائل العاقل كذلك يظهر من رذائل الجاهل حتى يصير مثلا في الغابرين وحديثا في الآخرين مع هتكه في عصره وقبح ذكره في دهره كالذي رواه عطاء عن جابر قال كان في بني اسرائيل رجل له حمار فقال يارب لو كان لك حمار لعلفته مع حماري فهم به نبي من بني اسرائيل فأوحى الله اليه انما أثيب كل انسان على قدر عقله واستعمل معاوية رجلا من كلب فذكر المجوس يوما عنده فقال لعن الله المجوس ينكحون أمهاتهم والله لو أعطيت عشرة آلاف درهم ما نكحت أمي فبلغ ذلك معاوية فقال قبحه الله أتروه لو زادوه فعل وعزله وولى الربيع العامري (وكان من النوكى) سائر اليمامة فأقاد كلبا بكلب فقال فيه الشاعر

شهدت بأن الله حق لقاؤه * وأن الربيع العامري رقيع

أقاد لنا كلبا بكلب ولم يدع * دماء كلاب المسلمين تضيع

وليس لعار الجهل غاية ولا لمضار الحمق نهاية قال الشاعر

لكل داء دواء يستطبّ به * الا الحماقة أعيت من يداويها

﴿فصل﴾ وأما الهوى فهو عن الخير صادّ وللعقل مضادّ لأنه ينتج من الاخلاق قبائحها وينظهر من الافعال فضائحها ويجعل ستر المروءة مهتوكا ومدخل الشر مسلوكا . قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما الهوى إله يعبد من دون الله ثم تلا أفرأيت من اتخذ آلهه هواه وقال عكرمة فى قوله تعالى «ولكنكم فتنتم أنفسكم» يعنى بالشهوات «وتربصتم» يعنى بالتوبة «وارتبتم» يعنى فى أمر الله «وغرّتكم الأمانىّ» يعنى بالتسويف «حتى جاء أمر الله» يعنى بالموت «وغرّكم بالله الغرور» يعنى الشيطان . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال طاعة الشهوة داء وعصيانها دواء وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فانها طلاعة تنزع الى شر غاية ان هذا الحق ثقيل مرىّ وان الباطل خفيف وبىّ وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة وشهوة ساعة أورثت حزنا طويلا . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه أخاف عليكم اثنين اتباع الهوى وطول الأمل فان اتباع الهوى يصدّ عن الحق وطول الامل ينسى الآخرة . وقال الشعبى انما سمى الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه . وقال أعرابى الهوى هوان ولكن غلط باسمه فأخذه الشاعر وقال

ان الهوان هو الهوى قلب اسمه * فاذا هويت فقد لقيت هوانا

وقيل فى منشور الحكم من أطاع هواه أعطى عدوّه مناه . وقال بعض الحكماء العقل صديق مقطوع والهوى عدوّ متبوع . وقال بعض البلغاء أفضل الناس من عصى هواه وأفضل منه من رفض دنياه . وقال هشام ابن عبد الملك بن مروان

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى * الى كل ما فيه عليك مقال

قال ابن المعتز رحمه الله لم يقل هشام بن عبد الملك سوى هذا البيت . وقال الشاعر

اذا ما رأيت المرء يقتاده الهوى * فقد ثكلته عند ذاك ثواكله

وقد أشمت الأعداء جهلا بنفسه * وقد وجدت فيه مقالا عواذله

وما يردع النفس اللجوج عن الهوى * من الناس الا حازم الرأي كامله

ولما كان الهوى غالبا والى سبيل المهالك موردا جعل العقل عليه رقيبا مجاهدا يلاحظ عثرة غفلته و يدفع بادرة سطوته و يدفع خداع حيلته لأن سلطان الهوى قوى ومدخل مكره خفى ومن هذين الوجهين يؤتى العاقل حتى تنفذ أحكام الهوى عليه أعنى بأحد الوجهين قوى سلطانه و بالآخر خفاء مكره فأما الوجه الأول فهو أن يقوى سلطان الهوى بكثرة دواعيه حتى تستولى عليه مغالبة الهوى والشهوات فيكل العقل عن دفعها و يضعف عن منعها مع وضوح قبحها في العقل المقهور بها وهذا يكون في الأحداث أكثر وعلى الشباب أغلب لقوة شهواتهم وكثرة دواعى الهوى المتسلط عليهم وأنهم ربما جعلوا الشباب عذرا لهم كما قال محمد بن بشير

كل يرى أن الشباب له * فى كل مبلغ لذة عذر

ولذلك قال بعض الحكماء الهوى ملك غشوم ومتسلط ظلوم . وقال بعض الأدباء الهوى عسوف والعدل مألوف . وقال بعض الشعراء

يا عاقلا أردى الهوى عقله * مالك قد سدت عليك الامور

أتجعل العقل أسير الهوى * وانما العقل عليه أمير

وحسم ذلك أن يستعين العقل بالنفس النفور فيشعرها ما فى عواقب الهوى من شدة الضرر وقبح الاثر وكثرة الاجرام وتراكم الآثام . فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات» أخبر أن الطريق الى الجنة باحتمال المكاره والطريق الى النار باتباع الشهوات . قال على بن أبى طالب رضى الله عنه إياكم وتحكيم الشهوات على أنفسكم فان عاجلها ذميم وآجلها وخيم فان لم ترها تنقاد بالتحذير والارهاب فسوقها بالتأميل والارغاب فان الرغبة والرهبة اذا اجتمعتا على النفس ذلت لهما وانقادت وقد قال ابن السماك كن لهواك مسوفا ولعقلك مسعفا وانظر ما تسوء عاقبته فوطن نفسك على مجانبته فان ترك النفس وما تهوى داؤها وترك ما تهوى دواؤها فاصبر على الدواء كما تخاف من الداء . وقال الشاعر

صبرت على الأيام حتى تولت * وألزمت نفسى صبرها فاستمرت

وما النفس الا حيث يجعلها الفتى * فان أطمعت تاقت والا تسلت

فاذا انقادت النفس للعقل بما قد أشعرت من عواقب الهوى لم يلبث الهوى أن يصير بالعقل مدحورا وبالنفس مقهورا ثم له الحظ الاوفى فى ثواب الخالق وثناء المخلوقين قال الله تعالى «وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى» . وقال الحسن البصرى أفضل الجهاد جهاد الهوى . وقال بعض الحكماء أعز العز الامتناع من ملك الهوى . وقال بعض البلغاء خير الناس من أخرج الشهوة من قلبه وعصى هواه فى طاعة ربه . وقال بعض الادباء من أمات شهوته فقد أحيا مروءته . وقال بعض العلماء ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة

وركب البهائم من شهوة بلا عقل وركب ابن آدم من كليهما فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم . وقيل لبعض الحكماء من أشجع الناس وأجراهم بالظفر في مجاهدته قال من جاهد الهوى طاعة لربه واحترس في مجاهدته من ورود خواطر الهوى على قلبه . وقال بعض الشعراء

قد يدرك الحازم ذو الرأى المنى * بطاعة الحزم وعصيان الهوى

وأما الوجه الثاني فهو أن يخفي الهوى مكره حتى تتموه أفعاله على العقل فيتصور القبيح حسنا والضرر نفعا وهذا يدعو إليه أحد شيئين إما أن يكون للنفس ميل الى ذلك الشئ فيخفى عنها القبيح لحسن ظنها وتتصوره حسنا لشدة ميلها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم حبك الشئ يعمى ويصم أى يعمى عن الرشد ويصم عن الموعظة . وقال على رضى الله عنه الهوى عمى . قال الشاعر * حسن في كل عين من تود * وقال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه

ولست براء عيب ذى الود كله * ولا بعض ما فيه اذا كنت راضيا

فعين الرضا عن كل عيب كليلة * ولكن عين السخط تبدى المساويا

وأما السبب الثاني فهو استثقال الفكر في تمييز ما اشتبه وطلب الراحة في اتباع ما يسهل حتى يظن أن ذلك أوفق أمريه وأحمد حاليه اغترارا بأن الاسهل محمود والاعسر مذموم فلا بد من أن يتورط بخدع الهوى وزينة المكر في كل مخوف حذر ومكروه عسر ولذلك قال عامر بن الظرب الهوى يقظان والعقل راقد فمن ثم غلب . وقال سليمان بن وهب

الهوى أمتع والرأى أنفع وقيل فى المثل العقل وزير ناصح والهوى وكيل فاضح . وقال الشاعر

اذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتهت * ولم ينهها تاقت الى كل باطل

وساقت اليه الاثم والعار بالذى * دعته اليه من حلاوة عاجل

وحسم السبب الاول أن يجعل فكر قلبه حكما على نظر عينه فان العين رائد الشهوة والشهوة من دواعى الهوى والقلب رائد الحق والحق من دواعى العقل . وقال بعض الحكماء نظر الجاهل بعينه وناظره ونظر العاقل بقلبه وخاطره ثم يتهم نفسه فى صواب ما أحبت وتحسين ما اشتهت ليصح له الصواب و يتبين له الحق فان الحق أثقل محملا وأصعب مركبا فان أشكل عليه أمران اجتنب أحبهما اليه وترك أسهلهما عليه فان النفس عن الحق أنفر وللهوى آثر . وقد قال العباس بن عبد المطلب اذا اشتبه عليك أمران فدع أحبهما اليك وخذ أثقلهما عليك وعلة هذا القول هو أن الثقيل تبطئ النفس عن التسرع اليه فيصح مع الابطاء وتطاول الزمان صواب ما استعجم وظهر وما استبهم . وقد قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه من تفكر أبصر والمحبوب السهل تسرع النفس اليه وتعجل بالاقدام عليه فيقصر الزمان عن تصفحه و يفوت استدراكه لمقضى فعله فلا ينفع التصفح بعد العمل والاستدراك بعد الفوت . وقال بعض الحكماء ما كان عنك معرضا فلا تكن له متعرضا . وقال الشاعر

أليس طلاب ما قد فات جهلا * وذكر المرء ما لا يستطيع

ولقد وصف بعض البلغاء حال الهوى وما يقارنه من محن الدنيا فقال الهوى مطية الفتنة والدنيا دار المحنة فاترك الهوى تسلم وأعرض عن

الدنيا تغنم ولا يغرنك هواك بطيب الملاهي ولا تفتننك دنياك بحسن العواري فمدة اللهو تنقطع وعارية الدهر ترتجع ويبقى عليك ما ترتكبه من المحارم وتكتسبه من المآثم . وقال علي بن عبد الله الجعفري سمعتني امرأة في الطواف وأنا أنشد

أهوى هوى الدين واللذات تعجبني * فكيف لي بهوى اللذات والدين

فقالت هما ضرتان فذر أيهما شئت وخذ الأخرى فما فرق ما بين الهوى والشهوة مع اجتماعهما في العلة والمعلول واتفاقهما في الدلالة والمدلول فهو أن الهوى مختص بالآراء والاعتقادات والشهوة مختصة بنيل المستلذات فصارت الشهوة من نتائج الهوى وهي أخص والهوى أصل هو أعم . ونحن نسأل الله تعالى أن يكفينا دواعي الهوى ويصرف عنا سبل الردى ويجعل التوفيق لنا قائدا والعقل لنا مرشدا . فقد روي أن الله تعالى أوحى الى عيسى عليه السلام عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس والا فاستحي مني . وقال محمد بن كناسة

ما من روى أدبا ولم يعمل به * ويكف عن زيغ الهوى بأديب
حتى يكون بما تعلم عاملا * من صالح فيكون غير معيب
ولقلما تغني اصابة قائل * أفعاله أفعال غير مصيب

وقال آخر

يا أيها الرجل المعلم غيره * هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى * كيما يصح به وأنت سقيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها * فاذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك تعذران وعظت ويقتدى * بالقول منك ويقبل التعليم

لاتنه عن خلق وتأتى مثله * عار عليك اذا فعلت عظيم

حكى أبو فروة أن طارقا صاحب شرطة خالد بن عبد الله القسرى مر بابن شبرمة وطارق فى موكبه فقال ابن شبرمة

أراها وان كانت تحب كأنها . سحابة صيف عن قريب تقشع

اللهم لى دينى ولهم دنياهم فاستعمل ابن شبرمة بعد ذلك على القضاء فقال له ابنه أبو بكر أتذكر قولك يوم كذا أن مر بك طارق فى موكبه فقال يابنى انهم يجدون مثل أبيك ولا يجد أبوك مثلهم ان أبالك أكل من حلوائهم فخبط فى أهوائهم أما ترى هذا الدين الفاضل كيف عوجل بالتقريع وقوبل بالتوبيخ من أخص ذويه ولعله من أبر بنيه فكيف بنا ونحن أطلق منه عنانا وأقلق جنانا اذا رمقتنا أعين المتتبعين وتناولتنا ألسن المتعنتين هل نجد غير توفيق الله تعالى ملاذا وسوى عصمته معاذا

(باب أدب العلم)

اعلم أن العلم أشرف ما رغب فيه الراغب وأفضل ما طلب وجد فيه الطالب وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب لان شرفه ينمّ على صاحبه وفضله ينمى عند طالبه . قال الله تعالى «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» فنع سبحانه المساواة بين العالم والجاهل لما قد خص به العالم من فضيلة العلم وقال تعالى «وما يعقلها الا العالمون» فنفى أن يكون غير العالم يعقل عنه أمرا أو يفهم منه زجرا . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أوحى الله الى ابراهيم عليه السلام انى عليم أحب كل عليم . وروى أبو أمامة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين أحدهما عالم والآخر